

الغزاف - قصتي

قصتي بقلم: هادي طرابيشي

لا تتركها في أي مكان

ويريد سيقها : « لقد أحرقت منذ لحظات اعز ما تبقى عندي : البوم الصور الذي احتفظ فيه بكل صور طفولتي وشبابي . كانت لي فيه صورة وانا في الثامنة عشرة ازهو بكامل براءتي وطهارتي . كنت يوماً شاباً اطمح في الحياة وان كنت لم اطرق ابوابها بعد . كنت مؤمناً بأن ابي باب سأطرقه سيفتح لي . لم اكن اعرف معنى للألم او التعاسة . كنت في فرح دائم . الفرح الذي لا حدود له . ولكنني فقدت كل ذلك . فقدت فرحي وبرائتي وسعادتي . فقدت كل ما يسمى بالضمير . وقد حان ان يقرأ الجميع قصتي ، وسأروي كل شيء بالتفصيل انا جبان . لقد اكتشفت نفسي اخيراً . قد تكون الحتمية مرة ولكن لا يد من مواجهتها يوماً ما . لقد أدركت مقدار جبي . انه لشيء اليم ان يكون الانسان جباناً . لقد كنت كمن يمد يده الى الفقير الاعمى متظاهراً باعطائه عدة قروش ليسرق ما يمكن سرقة من ذلك الاعمى ما دام لا يراه . لم اكن اسرق بجرأة لأنني كنت جباناً . لقد عشت دائماً في الظلام وسأنتهي في الظلام . الجبن عجيبة لزجة كالقدارة ، تلتصق بي وأحس بطعمها الكريه .

كل شيء هادئ من حولي ، والظلام نجيم في الخارج ليستطيع الجبناء فعل ما يريدون . الهدوء ، احس اني ابتلعه ، اغرق فيه . ولكن هناك شيء ، اسمعه ، لا ادري ما هو ، لا يزال يرن في اذني ورأسي وجوفي . شيء كرهه قدر ، لا استطع الفكك من إساره . انه يلاحقني باستمرار . انه مني . من كياني وعييتي . اني اشعر بأنني سأستطيع في احدى اللحظات الهاربة ان اعرف كنهه . ولكنه يهرب من شباك ذاكرتي في اللحظة المناسبة . انه يهرب ، تماماً كما كنت افعل عندما اهرب من نفسي ... يا ... لا ! لن اقول يا الهي فأنا لا اله لي لأنني جبان . لقد اكتشفته اخيراً ولكن في اللحظة التي لا زمن بعدها . انه اخطبوط ، اطرافه متعددة وطويلة ، تلتصق حولي لتمتصني . لن ادعه يتمتصني . لن ادعه ... ولكن أحققاً استطيع ذلك ، أنا الجبان ؟

لشد ما يثير اعصابي هذا الحارس الليلي الذي يصفر دائماً . يصفر بدون توقف . انني اخاف من فحيح صفارته لأنه يفصح الجبناء . انه هو الآخر هزأ مني ، انه يصفر أكثر فأكثر وبقوة . أتراه اكتشف حقيقتي ؟ . انه يسحبني ، يجذبني نحو فحيح صفارته ، يحيلني الى استطالة صمغية دقيقة . يجب ان افعل شيئاً لإسكات هذا اللعين . كم أود لو القمي صفارته على الارض ثم - بلذة متصاعدة - اسحقها بقدمي الضخمة تماماً كما كنت افعل مع ضحاياي . اسحق الصفارة ، أقتها ذرات صغيرة ، هذا كل ما استطيع فعله لأنني جبان . ولكن الفحيح لن يزول لأنه يملأ كل مكان ويتصاعد من كل مكان .

لقد اكتشفت الليلة ذاتي ، وأخرجت من جوفي كتلا صلبة من الحجر . شيء كرهه ان يرى الانسان ما في جوفه وهو حي . ولكنني لا استطيع الا ان أفعل ذلك . أنا منجذب الى جوفي بقوة غريبة . هناك رائحة مننته منبعتة من

كان الهدوء العميق الشامل يسود الدار الكبيرة الفخمة ، والأنوار مطفأة في جميع الغرف ما عدا غرفة المكتبة التي كان النور يتسلل منها بتناقل وارتعاد . كان كل شيء غارقاً في صمت رهيف . وعلى المكتب جلس إنسان يفكر . وبين الفينة والفينة كان جدار الصمت يتحطم باحتكاكك عود الثقاب على الكبريت . وتشعل سيكارة ثم تذوب بسرعة وشرهة ، وترتمي جثتها المنهوكة على النفاضة المحجوفة صفراء شاحبة . لم يكن ثمة شيء يتحرك اللهم إلا دخان السيكارة المنهوكة الذي راح يتعقد في سقف الغرفة أطواقاً وغيوماً ، وظلال النار المشتعلة في المدفأة وهي ترسم على الجدار المقابل جثثاً دائمة قافية . كان الدخان يمتد من منخري الرجل على شكل خطين متوازيين ثم يتصاعد شامخاً إلى الأعلى ، وقد أطلقه الرجل بعد طول احتباس .

وامتدت عينا الرجل تحدقان في جدار الغرفة المنتصب امامهما . كان جداراً عريضاً فاتحاً شدقه لابتلاع كل فكرة أو صوت . كان يفكر باستمرار ، وأمارات التصميم تبدو على سحنته العابسة وعلى أصابعه التي تعصر السيكارة ببطء ميمت وقسوة . وقام عن مقعده ، واتجه نحو الجدار المقابل ، وهدوء اخرج البوماً للصور من بين الكتب ثم عاد به الى مكانه المعهود . وتطايرت ذرات من الغبار الناعم كانت عالقة بالألبوم ثم ساد السكون الطبيعي بيننا ارتمي الألبوم على المكتب وقد راحت لإصبعان نحيفتان تقلبان صفحاتها .

وافترجت شفتا الرجل الصارم عن ابتسامة باهتة كالوجه الذي انبثقت منه . ومن خلال الشفتين لاحت اسنان صفراء تأكلت اطرافها فأصحت اشبه بسور مدينة قديمة خرب . وحدقت عينان واستعان أضعفها الدهر في بعض صور الألبوم ثم انطبقتا قليلا وكأنهما تحاولان ان تحتفظا برسم الصورة على شبكتها . كانت الصورة تمثل شاباً في الثامنة عشرة ، يزهو بسننيه الفتية وشاربه الاينق وربطة عنقه الضخمة . ولكن لم تكن هذه الاشياء هي التي استأثرت باهتمام الرجل انما مسحة البراءة والطفولة التي كانت عينا الشاب تشعان بها . وتصاعدت في ساء الغرفة تهدة مثقلة بالألم لتلهاهمسات :

- آه ! كم كنت طاهراً .

واندفع عقله في لاحدود الزمن يستعيد ذكريات شبابه وطفولته وحياته الغابرة . وساد صمت رهيب مدة ربع ساعة . وفجأة أمسك الرجل بالألبوم ثم القاه في المدفأة التي سرعان ما التهمت بينا كان لهيها المتوقد يرسم على الجدار خطوطاً سحرية حمراء تتحرك جيئة وذهاباً وقد أثارها الألبوم بما فيه من مادة دسمة للاحتراق . وبعد قليل عادت المدفأة الى هدوئها العادي وكأنها لم تتبلع منذ لحظات اعز ما تبقى في حياة الرجل الواقف امامها .

وتطايرت ذرات الغبار مرة اخرى عندما عاد الرجل الى مقعده واخرج من الدرج اوراقاً بيضاء... ثم راح يكتب بسرعة وعصبية وكأنه يستعجل اللحظات

جثة كلب تدخل خياشيمي ، بكبرياء ، بل بقرف . لقد رافقتني هذه الرائحة الممتنة طيلة حياتي في الماضي ، ولكنني الآن فقط ادركت انها مننته .
أنا جبان . لقد حاولت ان اخني ذلك عن نفسي ، ولكن جبني كان اقوى مني . لقد التيت بذاتي في عالم غريب ، مجنون أحق ، علي أنسى ، غير اني كنت كمن يهرب من ظله . لقد حاولت ان ابيد ظلي فسرت دائماً في الظلام ؛ في الظلام تنعدم الظلال . ولكنه كان يتبعني دائماً ، بالحاح غريب ، لأنه جزء من وجودي . انه يسكن في ، في عظامي وجوفي وجمجمي . اني أحسه كدودة حقيرة تمش داخل ثمرة عفنة . أنا هو هذه الثمرة ؟ هذا ما ادركته الآن . لقد كنت ثمرة عفنة ينخرها الدود ، وكنت احاول ان انسى ذلك ، ان أغرق فيما انا فيه ، ولكن الدودة كانت تهشني وتفتتني ، وعندما لم يبق مني شيء سوى النواة ، أحسست بالخوف من حقيقي . اني ثمرة عفنة نهشها الدود . اني دودة .

لقد ادركت من أنا . اني عار ، مكشوف ، مثل آدم بعد ان أكل من شجرة التفاح ، والله يناديني : آدم ! آدم ! اين انت ؟ ولم تهرب مني ؟ .. ويزداد احساس بالمرى . لم يبق مني شيء لم يكشف . لقد فاحت جميع الروائح فجأة واتبه الجميع لي . وها أنا الآن أسبخ في العرق والدبق كنتك المومس افرنسية التي تتمرغ على رمال افريقيا الملتهبة .

لقد كنت دائماً اسير في عجلة ، وأسير وارفض حتى اللهث والانهيار ، ولكن الى الورا . لا يلد يوماً ان اعود من حيث انطلقت لأن الأرض كروية . بل اني عدت . لقد بذلت جهدي لأبتعد قدر ما استطيت عن النقطة التي انطلقت منها . لكن مغناطيساً قوياً كان يجذبني دائماً ، وبتصميم رهيب ، الى نفس النقطة . وكان لا بدني النهاية ان اصطدم بها...وتحطمت ، تماماً كالزجاج عندما تصطدم به حجرة . ان بدايتي اقوى مني لأنها الكل اما انا فلا شيء . كان يجب ان اركض الى الامام حتى لا اصطدم بها . اني لوح زجاج تحطم وتناثر ، ولن اعود الى الحياة مرة ثانية . اني هشيم متبعثر . هذا كل ما تبقى لي .

لقد شربت كثيراً من الخمر القاني ، شربت حتى لم يعد في معدتي مكان لنقطة اخرى . ولكنني تابعت الشرب كالمجنون . وثملت وكابرت . وتابعت الشرب وكان امامي امران : إما ان اتقياً جميع ما ابتلته او أنفجر . وعندما تقيأت تبينت ان الخمر الذي لفظته لم يكن إلا انا . لقد تقيأت نفسي . وعندما انفجرت تناثرت شظاياي وتطايرت بشكل غريب ، احق . وحاولت ان اضم نفسي التي تحطمت الى بعضها ، ان اعيد اليها رونقها السابق . ولكن الشظايا لم يعد لها وجود . لقد اختفت . كنت واهماً .

غداً ، عندما ينبج الصبح ، لن أكون في هذا العالم . سيأتي احدهم ، ولعلّ حقير مثلي ، ويجمع ما تبقى مني ، ويخفيه الى الأبد . لن يبقى مني شيء على الأرض . اما أنا فلن أحس شيئاً في القبر . القبر مسكن هادي لا ضجة فيه كان يجب ان ادرك ذلك منذ زمن طويل . اني لا اخاف الموت لأنني جبان اريد ان يكون تراب قبري ندياً عفنأ . وسأعيش مع الدود - الذي يأكلني - لأنني دودة . الجبان فقط لا يخاف القبر لأن حياته كلها كانت قبراً . شيء مضحك - وقد يكون سخيفاً - ان يصطف الانسان الى جانب الآلاف من الأموات ، ويكتب فوق شاهدته : مات في يوم كذا من سنة كذا . لا ! اني لم امت اليوم بل كنت ميتاً منذ زمن بعيد ، منذ ان اصبحت جباناً .

انني اعلم انهم غداً سيضعون اكاليل الزهر فوق جبتي . وسيظهرون بانبيكاً والحزن . انهم هم ايضاً جبناء . وكنت أنا أظهار بالبكاء كذلك . سأهزأ منهم ، وسأهقهه عالياً عندما سيلقون الزهور فوق تابوتي . سأهقهه كالمجنون ،

وسيسمعون قهقهة الرهيبة . ولكنهم لن يأبهوا لأن الجبن عفن ضائهم . غد لن يضحك احد سواي . الجميع سيرتدون السواد ، ولكنهم مناقفون . سأضحك انا وحدي فقط لأنني اعلم حقيقي . اما هم فلا يزالون حمقى .

هناك في ازقة المدينة ، وحاراتها القذرة ، اناس سعداء . اما انا فلست من طينتهم . ولا اعبد الاله الذي يعبدون . انا لا إله لي . لقد عرفتهم في المظاهرات في كل هتاف كانوا يطلقونه . لم اكن ابالي بتلك الهتافات لأنها لم تكن تعني عندي شيئاً . كنا نقول عنهم - أنا وعصبي من الجبناء - انهم من الغوغاء وكفى . غوغاء ، لقب جميل بالنسبة لهم . انهم يفتخرون به لانه يعبر عن حقارتنا ، نحن الجبناء . لقد عرفتهم منذ سنين جثاً متناثرة في كل مكان ، ودماء دافئة تروي ظمأ الأرض . كم اود هذه اللحظة لو كنت واحداً منهم .

سيقولون عني انني انتحرت ، انا الوزير السابق . وسترسم على وجوههم امارات الخوف والتعجب والاحتقار : وزير انتحر ؟ انه لحدث غير مألوف أن ينتحر الوزراء ؟ ولم ينتحرون ؟ . ولكن الجبناء سيقولون عني انني انتحرت لأن اعصابي قد انهارت او اني وقعت فريسة لمرض نفسي . ولكنهم مناقفون . اني سأنتحر لأنني جبان . وإن كنت أشعر الآن بشيء من السعادة فلأنني اعلم أن هناك من سيفرح - حقيقة - بموتي . لقد كانت حياتي سلسلة مترابطة من المزامرات والحيانات والموبقات . لقد فعلت كل شيء . وارتكبت كل أثم . وكنت لا ازال مستعداً لأن افعل كل شيء ، عندما ادركت انه يجب علي ان ابدأ بذاتي .

دار بيروت - للطباعة والنشر

بناية المصارف، تلويح شارع بيروت - لبنان

صدر حديثاً

١ - ديطارت

الكتاب السادس

من مجموعة اعلام الفكر

ترجمة

تأليف

تيسير شيخ الأرض

اندرية كريسون

٢ - السريالية

الكتاب الثاني

من مجموعة المذاهب الادبية

ترجمة

تأليف

هبيج شعبان

ايف دوبلسيس

مناقشات

حول محاضرة السياب

بقلم الدكتور شكري فيصل

كان الموضوع المطروح (*) : « وسائل تعريف العرب بنتائج الحديث » فهل في وسعنا ان نذكر في لحظة خاطفة ما الذي فعله المحاضر حين عرض هذا الموضوع ؟

انه قسم موضوعه في الاجابة عن سؤالين اثنين :
احدهما : ما هو النتاج الحديث الذي يستحق ان يعرف به .. ماهو الادب الذي يستحق التعريف ؟

والثاني : ما هي الوسائل الى هذا التعريف ؟

الحق ان الاستاذ السياب اتخذ من هذا السؤال : « ماهو النتاج الذي يستحق التعريف ؟ وسيلة ليتحدث الينا في منطقته الحلو وروحه المتدفقة عن جملة من آرائه الادبية ، وهي آراء انضجتها في ذهنه قراءته وتجاربه واستقر عندها رأيه فأثر ان يشاركنا بها .. ثم أثار بعد ذلك ان نتفق معه فيها اتفاقاً تاماً ، فنجعل

(*) ملخص التعليق الذي القاها الدكتور شكري فيصل على محاضرة الاستاذ بدر شاكر السياب حول « وسائل تعريف العرب بنتائج الحديث » في مؤتمر ادباء العرب بدمشق - وقد نشرت المحاضرة في العدد الاسبق من « الآداب »

من النتاج الادبي - في شروطه التي فهمه بها - النتاج الذي يستحق التعريف من اجل ذلك جاءت محاضرة الاستاذ السياب وفيها الكثير من الحديث عن الادب ولا اقول النتاج الحديث وقليل جداً من الوسائل للتعريف بهذا النتاج .. بينا كان من المفروض ان يكون الامر على العكس تماماً، اي ان يكون في المحاضرة كثير من الحديث عن الوسائل وبعض من الحديث عن الادب في نطاق هذه الزاوية التي تطل على الموضوع . وفي رأبي ان انحراف المنهج في معالجة الموضوع المطروح على المؤتمرين جاء من ناحيتين اثنتين : احدها نفسية ، والاخرى فكرية .

فاما من الناحية الفكرية فذلك ان الاستاذ السياب صدر عن مقولة اطمان اليها في نفسه .. مقولة لا تجعل الموضوع المطروح في حاجة الى معالجة ابدأ ، وتلك هي ان النتاج القوي في شروط القوة التي يراها هو ويعرف نفسه بنفسه : اجعل ادبك واقعياً او ملتزماً - والاستاذ لا يفرق بين ذلك ابدأ ويجمع بينه بهذه اللغة الشعرية التي تجعل الورد وردة وان سميت باسم آخر - اجعل ادبك كذلك يحتضنك القراء ، ويتم لك من التعريف ما اردت وما لم ترد وما لم يخطر لك من امر ارادته على بال

هذه القاعدة التي صدر عنها الاستاذ السياب في حاجة الى اكثر من وقفة طويلة .. انها هي الشيء الذي انتهى اليه .. وما ادري ان كنتم تستطيعون ان تنتهوا معه انتهاءً يسيراً سهلاً الى مثله .. واما الناحية النفسية فذلك ان الاستاذ بدر السياب فيما اعرف وفيما بدا لي ، شاعر .. متقد ، مستوفز الحس والرغبات الكريمة ... مؤمن في الذي يفكر فيه ويستقر عنده ، مندفع في سبيله ، يتمثله في كل مناسبة ، ويحضره في كل حديث .. انه تحدث عن كثير من الجوه الادبي .. ولكن في حكم الذي تحدث عنه كان صورة للاستاذ بدر شاكر السياب نفسه ، وعرضه له ، في تقويمه لبعض الآثار ، في حكمه على الشيوخ والشباب ، في تقسيمه للنتاج الادبي ، في المدرسة او المذهب الفكري الذي

الحقيقة ، لأن الحقيقة اقوى من جميعها .

سأدخل غداً في عالم الاموات . يقولون عنه انه عالم غريب مجهول . غير انني اعرفه ، ادرك جميع اسراره . يقولون ان الانسان يخشى الموت . لا ؟ انهم يخطئون . عندما ندرك حقيقة عالم الاموات لا نعود نخشى الموت . اننا عندئذ نريد برغبة قوية . سأدخل عالمي الجديد بعد لحظات . هناك لن أخرج نفسي . ولن أركض الى الوراء . هناك سأعيد الهأجديداً . ولن أكون جباناً .

أنا جبان . وانتحر لأني جبان . والخدمة الوحيدة التي استطيع ان اؤديها الى الانسانية هي الموت . وغداً عندما يفاجأون بجثتي المتدلالية كالمقذرة ، سيدركون مقدار جبنتي . وسيعلمون انني كنت بهذا العصر .

كانت النار في المدفأة قد حمدت . وتسللت برودة قاسية الى الغرفة جعلت اسابع الرجل تتقاص ، وتتناقص بشكل رهيب . واخذت الانفعالات النائرة السوداء تتراقص في حدقتيه المحاطتين بالشعر الأبيض . ثم هددت زاحف ، كالاتسان الذي يموت ، امتدت البرودة الى جسد الرجل وسقط القلم من بين اصابعه .

وغرقت الغرفة في صمت ثقيل . ومرت دقيقة وتلتها اخرى كاذت هناك صرخات تريد ان تنطلق ... صرخات رهيبية مكتومة كأنها آتية من القرون الوسطى ثم ... عادت الغرفة الى هدوئها العادي ونظامها السابق ، إلا كتلة سوداء ضخمة متدلالية من سقف الغرفة تروح وتجيء كرقصة الشيطان .

جورج طرابيشي

حلب

لم يعد في جمعي شيء من الانسان . انا كلي الآن - وبالأحرى قبل ساعة واحدة - ما من وسلطة وأهبة . لقد ذقت جميع شرور الدنيا في سبيل هذه الأشياء الثلاثة - وأنا اعتقد انها الفردوس الموعود . ولكنني اخطأت . كنت واهماً .

كان يجب علي ان ادرك منذ زمن بعيد ما معنى السعادة . ولكنني لم اشأ ذلك . كنت أسمع اذني واغلق عيني حتى لا اسمع ولا انظر . ولكن مهما هرب الانسان من نفسه فلا بد ان يلاقها يوماً . وهانا الآن امامها . انني لا استطيع الهرب او النسيان . انها تواجهني اني ذهبت . لم يعد بإمكانني التخلص من رقابتها . لقد حاولت كثيراً وجاهدت ولكنها كانت تمثل امامي دائماً .

ومنذ لحظات فقط وجدت الحل : الانتحار . هذا كل ما يمكنني ان افعله ، واذا واثق انني سأهرب من نفسي عندئذ الى الابد . لقد احترقت صورتي وكان هذا ايذاناً بانتهائي ، لأن صورتي كانت ذاتي التي ابغى الوصول اليها . والآن وقد انتهى كل شيء ، ولم يبق في صفحة عقلي الا انطباعات عن خياناتي الكثيرة فاني احس بأن المستقبل سيكون مظلماً ، غارقاً في الظلام العفن . لقد انتهيت .

لقد عشت قاذورة طيلة حياتي وسأنتهي في القاذورات . وانا لا اجرؤ على الانتحار بالمسدس لأن عملاً حاسماً كهذا يتطلب مني شجاعة لا أملكها . سأهني تمثيلية جبنتي بشنق نفسي . أن يتدلى الانسان بتراخ ، وعينه جاحظتان ، والصفرة تكسو جفنه ، هذا هو الجبن مجسداً . وهكذا يعمل الجبناء .

انني اكتب الآن قصة جبنتي مساهمة مني في فضح الجبناء ، جميع الجبناء بما فيهم أنا . وقد يحاولون غداً ان يدفنوا قصة انتحاري هذه حرمساً منهم على « مصالح الدولة » بحكم كوني وزيراً سابقاً . ولكنني اعلم ان الجميع سيدركون